ورقة عمل عن خطبة الجمعة بين الواقع والأمل

أ.د/محمد رأفت سعيد(*)

نحمدك اللهم ، ونستعينك ، ونستهديك ، ونصلى ونسلم على خاتم أنبيائك ورسلك سيدنا محمد ، وبعد.

فقد شغلت بموضوع «**خطبة الجمعة**» منذ وقت مبكر؛ فإن اللقاء المتكرر كل جمعة ، وبالتهيئة الكاملة لهذا اللقاء المفروض - يدعونا إلى ترشيد هذا اللقاء المبارك حتى يكون مثمراً وموجهًا للتى هى أقوم.

و النظرة الناقدة إلى هذا اللقاء فى واقعه ترى تهيئة كاملة فى جهة التلقى دعا إليها الكتاب الكريم والسنة المطهرة فيأتى المسلمون إلى اللقاء مبكرين ، تطهروا بالغسل ، وتطيبوا ، ولبسوا أحسن ثيابهم ، وراعوا مشاعر إخوانهم فى اللقاء فلم يتخطوا الرقاب ، وأحسنوا الصمت فلا كلمة حتى ولو كانت لإسكات الآخرين.

فهذه التهيئة تجعل المسئولين عن الكلمة فى هذا اللقاء وهم خطباء الجمعة أمام واجب كبير فى تعليم هؤلاء وتربيتهم وتوجيههم وتحصينهم.

و لكن الواقع يبدو فى هذه النظرة وهو فى أمسِّ الحاجة إلى مدارسة تقويمية ، وليس الخطباء فى ذلك سواء ، ولكن واقع الأمة فى عدم المعرفة

(*) أستاذ الشريعة والدراسات الإسلامية ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة المنوفية.

الصحيحة بكثير من الأمور التى لا يعذر المسلم فى الجهل بها يصرخ فى وجوه مصدر الكلمة فى هذا اللقاء ، فعدم الإعداد الصحيح لخطبة الجمعة من ناحية ، وركاكة الأسلوب من ناحية أخرى ، واختلاط المفاهيم، وعدم القدرة على التحصين فى مواجهة التيارات الفكرية العاتية من أسباب هذا الواقع الملحوظ.

وهذا يدعونا إلى التركيز فى المدارسة على العناصر الآتية:

١- إذكاء روح العناية بالخطبة واليقين فى جدواها وأثرها

٢- مضمون الخطبة بين الواقع والأمل .

٣- المنهج المقترح فى ذلك.

* أما إذكاء روح العناية بالخطبة فلمواجهة ما تتعرض له النفس من مثبطات للهمم فى عدم الجدوى من الكلمة ، وأن الكلام كثير ولا قيمة له ، وأن الناس لا تستجيب لما تسمع ولا تعمل بما توعظ به. وهذا على أحسن تقدير فى هذه المثبطات. أما التقدير الآخر والذى ينهض به من حرم من هداية الوحى فيتمثل فى الدعوة الملحة إلى تجفيف المنابع ، ويقصد بالمنابع هنا مصادر الكلمة المهتدية بهداية الوحى فى المسجد أو فى المذياع، أو التلفاز.

و إذا كان الإذكاء يقوى بإدراك هذه المواجهة النفسية أو الخارجية فإن أثر الكلمة قد أصله القرآن الكريم وأصلته السنة المطهرة فالكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها.

ولا يحتقر الداعى كلمة طيبة ولو كانت صغيرة ، ولو قالها لأفراد معدودين فإن الله سبحانه يبلغها إلى مَنْ شاء من خلقه عبر العصور . وكان من بين دعاء النبى صلى الله عليه وسلم « ... وأنت المستعان وعليك البلاغ ولا حول ولا قوة إلا بك».

وقد بلغنا الله سبحانه فى كتابه وعن طريق سنة نبيه صلى الله عليه وسلم كلمات قيلت على ألسنة الرسل مع أقوامهم ، وعلى ألسنة الصالحين والمضطهدين فى أماكن تحاصر الكلمة الطيبة ولا تسمح لها بالانتشار ، فاليقين فى أثر الكلمة يدفع إلى الهمة فى قولها وعدم اليأس من تكرارها عند الحاجة والتعليم والتربية ، وعلى انتقائها واختيارها لتكون مطابقة لمقتضى الحال.

* وهذا يسلمنا إلى مدارسة العنصر الثانى فى مضمون الخطبة ، أما هذا الواقع المعاصر فيشهد أن المضمون لا ينسجم مع ما عرف عن مضمون خطبة النبى صلى الله عليه وسلم من جهة ، ولايتلاءم مع واقع الأفراد والأمة ، ولا تظهر فيه ملامح التأصيل للمفاهيم التى يطالب الخطيب بتوصيلها وغرسها وتربية الناس عليها وقد جعله الله فى مكانة هذه المسئولية التى ورثها عن النبى صلى الله عليه وسلم والتى ذكرت فى قوله تعالى: «لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين»(١)

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٤.

و نتيجة لهذا الواقع فى الخطبة التى ضعف مضمونها، وحصر فى موضوعات غير شاملة ، وصيغت بأساليب ركيكة ، وكررت بصورة تلفت أنظار السامعين حتى أحدثت لدى بعض الناس زهداً فى الاستماع فيأتى إلى المسجد متأخراً لا يحرص على سماعها لأنها معلومة لديه - كانت النتيجة فى تفشى ما يمكن أن نسميه بالأمية التى يجهل فيها الناس كثيراً من المعارف التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات وغير ذلك.

وهذا له خطره على الأمة التى لا تبنى أبناءها على هذه المفاهيم فتصبح قابلة لمفاهيم أخرى لا تسعدها ، وتغرى بتيارات فكرية عاتية تجد مكاناً لديها نتيجة هذا الفراغ وتلك الأمية

وهذا ما يدعونا إلى القول بأن خطبة الجمعة بقسميها الأول والثانى أو بالتعبير الصحيح أن خطبتى الجمعة ينبغى أن تستوعبا عنصرين هما الأصالة والمواجهة.

ولتكن الخطبة الأولى فى الأصالة والثانية فى المواجهة ، أما الأصالة فأعنى بها أن تعنى الخطبة بعناصر البناء التى أشرنا إليها سابقًا والتى تنسجم مع مضمون خطبة النبى صلى الله عليه وسلم.

فقد كان من خصائص خطبه عليه الصلاة والسلام الشمول الذى يتناول فيه العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات وغيرها . فخطبته فى حجة الوداع شاهدة على ذلك ، وخطبته عند مقدمه المبارك إلى المدينة تتضمن ذلك.

كما أن كثيراً من خطبه صلى الله عليه وسلم كانت بالقرآن ، مع شمول الآيات فى السورة الواحدة وتنقل القارئ والسامع بين روضات متعددة ينهل منها المستجيب لها عقيدة صحيحة ، وتصورات تبنى عليها ، وأخلاقًا تنسجم معها ، وعبادات ومعاملات، وفيها قصص تؤخذ منها الدروس وتجارب السابقين ، فالخطبة ينبغى فى جزئها الأول أن تقدم للسامع هذا الشمول وهذا الترابط المتوازن بما يتلاءم مع وقت لا يقع فيه فى دائرة الإملال.

لتكون الخطبة الثانية فى المواجهة ، وأعنى بالمواجهة مناقشة ما يحتاجه الناس فى جوانب معاصرة فى صورة مشكلات تحتاج إلى حل ، أو شبهات تثار تحتاج إلى رد ، أو مشروعات تقام تحتاج إلى بذل جهود وهمم، إلى غير ذلك من وجوه المعاصرة.

و يأتى هذا الترتيب فى موضعه بعد التأصيل ؛ لأن التأصيل سيكون هو الأساس فى الحلول ، بل إننا نقول إن المشكلات تنشأ غالبًا - من الجهل بالأصول . فالعلم بها يحقق حصانة من ناحية ويعين على حل المشكلات من ناحية أخرى .

* وهذا هو الأمل الذى يسلمنا إلى العنصر الثالث فى المنهج المقترح لتحقيق هذا الأمل.

إن النظرة إلى واقع الخطباء على مستوى الأمة يجعلنا أمام هذا التصنيف :

١- خطباء متميزون وهؤلاء يدركون هذه الحقائق وأكثر منها ونسأل الله لهم مزيداً من التوفيق فى الاستمرار من جهة ، وفى الأخذ بيد إخوانهم الخطباء من جهة أخرى حتى يكونوا على طريقهم.

٢- خطباء يحملون شهادات جامعية فى الشريعة وأصول الدين والدعوة والثقافة الإسلامية وهؤلاء ينبغى أن يُزَوَّدوا بما يعينهم على إشباع العنصرين من كتب متخصصة ودورات تدريبية مستمرة حتي يكون العطاء منهم مقترنًا بالتزود العلمى المستمر.

٣- خطباء لم يبلغوا هذا المستوى السابق ، وهؤلاء لابد من تقديم العون لهم بتيسير هذه المفاهيم فى مؤلف جامع لهذه الموضوعات ، وبأسلوب ميسر ، يستطيعون القراءة منه لتحقيق هذا الشمول ، وبلغة سهلة دون أخطاء، وأن يلتزموا بهذا حتى يأتوا على هذا المؤلف ليعاد مرات أخرى حتى يستقر فى أذهان الناس؛ لأنه يتضمن العمل الكافى بالدليل الشافى من الكتاب والسنة وسائر المعارف المطلوبة ، وهذا يحقق لدى عامة الناس معرفة شاملة بحقائق الإسلام فى الأمور كلها ، كما يعين على المواجهة .

و أقترح لذلك أن تنهض المؤسسات المعنية بالأمر بهذه القيادة العلمية البحثية الواعية بتكوين فريق عمل من العلماء المتخصصين فى هذه المعارف الإسلامية من تفسير وعلوم القرآن وحديث وعلومه وعقيدة ومذاهب

معاصرة وسيرة وتاريخ ولغة وأدب وفقه وأصول وثقافة ودعوة ليضع هذا الفريق منهجًا للموضوعات المختارة ومَنْ يكتب فيها لتعرض هذه الأعمال التى تلتزم بما يوضع لها - بالاتفاق - من ضوابط على هذا الفريق ليخرج المؤلف بروح واحدة لا يتناقض فى موضوعاته، ولا يصعب فى لغته ، ولا يعزل عن عصره ليكون الكتاب المقرر على خطباء المساجد ، يفيد منه الجميع، وبخاصة المستوى الثالث الذى أشرنا إليه .

و قد ينشأ اعتراض على ذلك فى القول بتقييد الخطيب بشىء يملى عليه ، ويجاب عن هذا بأنه قيد ضرورى لابد منه فى التأهيل الذى هو محل اتفاق من الجميع فى العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات من الكتاب والسنة . وإذا كان الأمر اجتهاديًا فلتكن الإشارة إلى ذلك فى الكتاب ، وإنه مما يتسع القول فيه ، فمن فعل وجهًا من هذه الوجوه فهو مصيب.

والجواب من جهة أخرى أن هذا القيد الضرورى فى الخطبة الأولى ، وللخطيب أن يضيف ما شاء مما مَنَّ الله به عليه من علم دون إملال ، وأمامه كذلك الخطبة الثانية.

ولإتمام الفائدة فى هذا أن يصبح هذا الكتاب مقرراً يلتزم به الخطيب تدريسًا فى الخطبة الأولى ، ومزيداً من التفهيم والتدريس فى دروسه بالمسجد أيام الأسبوع، وأن تعقد فى الأحياء مسابقات يُختبر فيها مَنْ يشاء من أهل الحى فى هذا المقرر، ومَنْ يُجاز به من أهل الحى ويرغب فى الإمامة يمكن أن تحل به مشكلة العجز فى الخطباء غير المؤهلين فى القرى الصغيرة والأحياء.

بهذا الإشباع العلمى من ناحية مع هذا الدفع للشبهات من ناحية أخرى نحقق التوازن الذى يحمى الفرد والأمة من ظاهرة العنف و التطرف.

هذا وبالله تعالى التوفيق وصَلِّ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه.

* * *